

# اللهو والمدينة

خالد زيادة

## I

ينم مشهد المدينة الإسلامية عن تنوع إنساني كثيف، فثمة بالإضافة إلى التجار والحرفيين والمتكسبين، الشحاذون والبطالون والحواة والقردياتية والمهرجين وسواهم. إن السوق والمسجد يبرزان كركني المدينة وحياتها اليومية، وأمام الصرامة التي يفرضها ارتياد المسجد تبعاً للقواعد التي رسمها الفقهاء، فإن السوق الذي جدّ الفقهاء في ضبط معاشه وأحواله، كان موقعاً ممتداً للنشاط الإنساني من كل نوع، حيث يتضارب العمل باللهو والجد بالبطالة، والخاص بالعام والنفيس بالخشيس. وكان السوق مرتعاً لأنواع الصعلكة فضلاً عن تنوع الألوان الزاهية بأجناس الناس وأصواتهم. ينم مشهد السوق إذاً عن ازدحام يشبه الفوضى لشدة التداخل بين الناس والأشياء. وخلف هذه الفوضى التي يعكسها البصر يجدر البحث عن الأنظمة الكامنة التي كان السوق يخضع لها وتتبعها المدينة ككل.

والبحث عن نمط الحياة اليومية، وحياة اللهو، يدفع باتجاه مصادر متعددة، فأصحاب المقامات، الحريري والهمداني، يعكسون حياة الهذر واللهو بأبطالها من المتسكعين والمتكسبين والمكدين وسواهم، كما تعكس المقامات حياة التجار والعلماء والحرفيين. ونجد مثل ذلك في العالم المديني الفسيح الذي تتحدث عنه

«ألف ليلة وليلة» حيث نلمح اختلاط الواقع بالخيال وبالأسطورة في أذهان الناس، وينعكس كل ذلك في حياتهم اليومية ومعاشهم ورزقهم ولهوهم. وتشارك في ذلك المؤلفات التاريخية التي تترك الانطباع حول تبدل العادات وتغيرها من حقبة إلى أخرى. إلا أن المصادر الفقهية عامة، وتلك الخاصة بموضوع الحسبة، والتي تحدد نظرياً وعملياً عمل المحتسب في السوق أولاً بأول، وفي كافة مواقع المدينة، تعطينا فكرة عن القواعد التي تحكم نشاط المدينة، والتي تفصل بين المعروف والمنكر، وبين الجد واللهو.

تشكل الرسائل الفقهية الخاصة بالحسبة مدخلاً مناسباً للولوج في عالم المدينة بوجهيه الصارم واللاهبي. يقدم الفقهاء انطباعاً صارماً عن الحياة اليومية في المدينة لتتنوع القواعد التي يشترطونها، وخلف هذه الصرامة ينكشف وجه آخر، فكثرة القواعد والموانع توحى بوفرة النشاط الذي يوجب المراقبة والمنع، والذي يقترب من حد الهزل واللهو أو يتجاوزه. وهكذا نقرأ عند ابن عبد الرؤوف، وهو فقيه أندلسي، ما يلي: «يجب أن ينظر - المحتسب - في أمر القهارة والقصاص وبائعي الأحراز وغيرهم. فأما أهل الأحراز فيؤمنون أن يكتبوها بأيديهم ولا يكتبوها على القلب فإنه ليس بمخطوط، وينهون عن الكلام عليها بتلك المساطر التي لهم. ويمنع القهارة عما يجعلونه بين أيديهم من رؤوس العقبان والنسور والأسنان المقلوعة وعن إمساك الحيات والعقارب»<sup>(١)</sup>. وعلى نفس الغرار فإن الجرسيفي وهو صاحب رسالة أخرى في الحسبة فإنه يعطي في أسطر قليلة فكرة عما تشتمل عليه الأسواق التي كانت مرتعاً: «للقرادين والحشاشين والطوافين على الدور الملبسين على الناس والمتحيلين عليهم ممن يتخذ بالأباطيل، كالحساب الذين يستخدمون الأعداد في أنواع السحر، والكهنة والعشابين والمهانين والمختثين وأهل الفجور». ويطلب الجرسيفي منع ظهور: القمارين والخمارين والسكارى في الأسواق»<sup>(٢)</sup>.

(١) ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة

١٩٥٥، ص ١١٠ - ١١٢.

(٢) نفسه، ص: ١١٩ وما بعدها.

ويشبه ذلك ما يورده محمد السقطي في كتاب آداب الحسبة، إذ يذكر بخصوص الأسواق ما نصه: «ولا يترك المبهرجين والمهذرين يجعلون مجالسهم إلا في الشوارع السالكة وبحيث يجتمع الناس. ويمنعون من أن لا يهذروا على النساء ولا جهال الرجال بكهانة ولا كتاب محبة ولا بَغْضَة ولا برد، فكل ذلك باطل. ويُشدد على المخنثين ألا يربوا الأصداغ وأن لا يحضروا الولائم والمآتم»<sup>(٣)</sup>.

تعطينا الفقرات السابقة فكرة عما يشتمل عليه السوق، من أشخاص يسكون الحيات والعقارب بأيديهم، ويضعون الأحراز وأسنان الحيوانات حول أعناقهم، وتكتمل الصورة بالقوالين الذين ينشدون الأشعار والقردياتية والمشعوذين والشحاذين، فضلاً عن بائعي المواد من كل نوع. يتطرق الفقيه العقباني وهو من تلمسان إلى منكرات الأسواق، وهي كثيرة، حتى يصل إلى ضرورة منع: «بيع آلات اللهو المحرمة والتماثيل المجسدة، وأواني الذهب والفضة وثياب الحرير». ويتطرق إلى الألعاب المصورة والعرائس، فيقول: «المستخف من هذه اللعب المصورة للعب الجوّاري.. ما كان مشبهاً بالصورة وليس بكامل التصوير. وكلما قلّ الشبه قويّ الجواز.. أما ما كان على نحو ذلك فلا يجوز اللعب به. وما كان لا يجوز اللعب به فلا يسوغ عمله أو بيعه.. وكذلك بيع التصاوير والأشكال المتخذة على هيئة الحيوان لنحو ما يستعمل لجري الماء للحمامات والديار ونحوها على أشكال الأسد وغيره من جنس الحيوان. وكالتصاوير التي تستعمل للصبيان في الأعياد والمواسم. وكل ذلك منكر، ويجب تغييره، والمنع من جمعه وكسر أواني الذهب والفضة حتى تبطل منفعتها بذلك وتقطع أثواب الحرير..»<sup>(٤)</sup>. أما آلات اللهو، أي السماع، فلا يجوز عمل ما كان سماعه منها محرماً، وبالتالي فإن بيعه محرم بالضرورة. وقد

(٣) محمد السقطي: كتاب في آداب الحسبة والمحتسب، باريس ١٩٣١. ص ٦٧ - ٦٨.

(٤) عبد الله بن محمد بن أحمد العقباني التلمساني: كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر. تحقيق علي الشنوفي، ضمن:

اختلف الفقهاء فيما يجوز استعماله وكيفية ذلك. ويتسامح العقباتي التلمساني في أدوات اللعب الخاصة بالأولاد والأطفال، يقول: «أما الآلات التي يلعب بها الصبيان كالدوامات ونحوها فلا بأس بعملها وبيعها.. لأن اللعب مباح لهم لا يمنعون منه شيئاً»<sup>(٥)</sup>.

تطال الموانع نوعين من أنواع اللهو: السماع من جهة وألعاب التسلية من جهة أخرى. وبخصوص السماع فإن أبا العباس الهيثمي في كتابه: «كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع» يحدد المحرمات في هذا الباب: تحريم سماع الغناء من امرأة حرة أو امرأة أجنبية لأن صوت المرأة عورة، وسماعه من الأُمرد محرم أيضاً كسماعه من المرأة<sup>(٦)</sup>. أما الرقص والتصفيق بخفة ورعونة مشابهة لرعونة الإناث لا يفعلها إلا أرعن أو متصنع أو جاهل<sup>(٧)</sup>. ويتطرق الهيثمي إلى التفاصيل؛ فالدف حلال بلا كراهة في عرس وختان وتركه أفضل. ولا يحرم ضرب الطبول إلا الكوبة، وهي طبل طويل متسع الطرفين، ضيق الوسط، وهو الذي يعتاد ضربه المخشون ويولعون به<sup>(٨)</sup>. أما الصفاقتان أو الصنج فالمعتمد أن ذلك حرام لأنها عادة المخنثين كالكوبة<sup>(٩)</sup>. أما التصفيق بالكفين فمكروه عند العراقيين ومحرم عند الخراسانيين<sup>(١٠)</sup>.

أما فيما يخص بأدوات التسلية واللهو، فإن الإمام أبا بكر الأجرى في كتابه: تحريم النرد والشطرنج والملاهي، يرجع إلى حديث نبوي، وهو الحديث الذي يعود إليه العديد من الفقهاء عندما يطرقون هذا الموضوع وهو: «ليس من اللهو إلا ثلاثة، ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه»<sup>(١١)</sup>. وهكذا

(٥) التلمساني، المرجع السابق. ص ٩٩.

(٦) أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيثمي: كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع. تحقيق عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٦. ص ٥٨.

(٧) نفسه، ص ٧٣.

(٨) نفسه، ص ٩١.

(٩) نفسه، ص ٩٨.

(١٠) نفسه، ص ١٠٧.

(١١) أبو بكر محمد بن الحسين الأجرى: تحريم النرد والشطرنج والملاهي. دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨ ص ٤٠.

فإن اللاعب بالنرد من غير قمار عاص لله عز وجل، يجب عليه أن يتوب. فإن لعب بها وقامر بها فهو أعظم لأنه أكل الميسر أي القمار<sup>(١٢)</sup>. وينقل الأجري حديثاً جاء فيه: «من لعب بالنردشير، فكأنما غمس يده في لحم الخنزير»<sup>(١٣)</sup>. أما اللعب بالكعب، فإن الأجري يذكر: اجتنبوا هذه الكعب الموسومة التي تزجر الناس زجراً فإنها من الميسر<sup>(١٤)</sup>. ويذكر الأجري في أثر مسند مرفوع بطريق أبي هريرة: «إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بالأزلام والشطرنج والنرد، وما كان من اللهو فلا تسلموا عليهم، فإن سلموا عليكم فلا تردوا عليهم، فإنهم إذا اجتمعوا وأكبوا عليها جاء إبليس بجنود فأحذق بهم»<sup>(١٥)</sup>. ومثال ذلك اللعب بالبهائم كاللعب بالدجاج أو صيد الطيور. وطال النهي اللعب بالحمام، ولم تقبل شهادة اللاعب به.

تركت هذه الموانع الفقهية أثراً جمة على عادات اللهو والتسلية. وحتى زمن غير بعيد كان إظهار النرد والشطرنج يعتبر من الأمور المكروهة. وقد تشدد الفقهاء وأهل الحديث في ذلك، وأثرت هذه الموانع في أهل التقوى. إلا أن الموانع لم تستطع دائماً أن تلجم العامة الذين يطلقون لأنفسهم العنان في المواسم والأعياد خصوصاً في المناسبات الدينية أو السلطانية، فتعتبر هذه المناسبات مواعيد للهو والهذر والتسلية.

كذلك لم يمنع الأمر من ظهور المؤلفات المختصة باللعب واللهو. وهكذا فإن ابن النديم في كتاب الفهرست يتحدث عن الموسيقيين والحساب المنجمين وصناع الآلات وأصحاب الحيل والحركات، ويذكر العشرات من رسائلهم ومؤلفاتهم وينسب هذه المؤلفات إلى الفلسفة والعلوم القديمة. ويعقد المقالة الثامنة من الكتاب لثلاثة فنون في الأسفار والخرافات والعزائم والسحر والشعبذة<sup>(١٦)</sup>.

(١٢) نفسه، ص ٤٧.

(١٣) نفسه، ص ٤٩.

(١٤) نفسه، ص ٥٣.

(١٥) نفسه، ص ٦٥.

(١٦) ابن النديم: كتاب الفهرست. تحقيق رضا - تجدد. ص ٣٦٣ وما بعدها.

ويمكننا أن نعود إلى مثال واحد من هذه المؤلفات صريح في عنوانه وهو كتاب: اللهو والملاهي لابن خردذابه المتوفى سنة ٣٠٠هـ/٩١١م. ينصرف الكتاب إلى ذكر الغناء والمغنين، ويأخذ ابن خردذابه باعتباره نواهي الشريعة، لهذا فإنه يذكر في مطلع الكتاب الحديث عن عائشة التي ذكرت: «دخل أبو بكر رضي الله عنه، وعندني جاريتان من جواربي الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث، فقال أبو بكر: بمزموه الشيطان في بيت رسول الله؟! وذلك يوم عيد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا». وعن الشعبي قال: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحاب الدنكلة وهم يلعبون، فقال: خذوا يا بني أرفدة حتى تعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة، فأخذوا يلعبون»<sup>(١٧)</sup>.

ومن هذه الفسحة ينطلق ابن خردذابه ليتحدث عن الغناء والمغنين وأدوات الموسيقى. فيقول: فضلُ الغناء على المنطق كفضل المنطق على الخرس، والبرء على السقم، والدينار على الدرهم، وفضل العود على جميع الملاهي كفضل الإنسان المميز على سائر الحيوان.

وبالرغم من امتداح الغناء وأثره، وظهور المغنين منذ أيام المدينة في عهد الهجرة على حسب ما يذكر، إلا أن ابن خردذابه يعطينا الانطباع بأن الغناء، يكاد يكون مقتصرًا على الجاريات الرقيقات وعلى المخنثين وما شاكلهم من المخصيين، وينضاف إلى ذلك الأعمى والأسود وغير المسلم. وهو ما سنعود إليه لاحقاً.

## II

كان الطابع المرح للعامة يميل إلى جعل مواسم الأعياد مناسبات للهو واللعب، على اعتبار أن الأعياد مناسبات للتعطيل والخروج عن العادة والمألوف. إلا أن هذه المناسبات تطرح في الوقت ذاته سلسلة من الثنائيات تبعاً

(١٧) ابن خردذابه: المختار من كتاب اللهو والملاهي. نشر الاب اغناطيوس عبده. دار المشرق، بيروت (ط ٢) ١٩٦٩، ص ص ١٣ - ١٤.

لتكرارها في الزمان والمكان .

وأول ما يمكن رصده في هذا المجال التناقض بين أعياد المسلمين من جهة، وغير المسلمين من جهة أخرى. والواقع أن الأعياد في الإسلام تتلخص بعيدي الفطر والأضحى. ويأتي عيد الفطر بعد شهر الصيام الذي هو موسم للتقوى. أما عيد الأضحى فيسترافق مع أداء فريضة الحج في مكة. والمبدأ في هذين العيدين أنهما مكافأة للمؤمن. وبطبيعة الحال فإن المدن خلالها كانت تبدي مظاهر الفرح والتزيين. واعتبرت الأعياد فرحة للأطفال خاصة، بينما هي بالنسبة للبالغين مناسبات لتجديد ما تفرضه الشريعة من صلة القربى والتصدق على الفقراء وأداء الزكاة وغير ذلك من الأمور المتصلة بالإيمان.

لكن الأقاليم الإسلامية كانت حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، لا تزال محتفظة بالأعياد التي كانت معروفة قبل السيطرة الإسلامية. في مصر تواصل الاحتفال بالأعياد القبطية القديمة التي هي مناسبات دينية لارتباطها بالتقاليد المسيحية، وهي مناسبات وطنية مرتبطة بإقليم مصر وفيضان النيل وما يرافق ذلك من احتفالات. واستمرت في العراق وفارس الاحتفالات بالأعياد الفارسية القديمة وأبرزها عيدا النيروز والمهرجان.

كانت هذه الأعياد القديمة والسابقة للإسلام ترتبط بمواسم الطبيعة وتقلبات الفصول، فهي مواعيد ثابتة تتكرر سنوياً في أوقات تتناسب مع بدء الربيع أو بدء الشتاء الخ. يضاف إلى ذلك كون الجماعات الحاملة لثقافتها التاريخية لا تزال تشكل غالبية من السكان. إلا أن اندفاع أهل المدن المسلمين لإحياء هذه الأعياد يمكن رده إلى اعتبار من نوع آخر؛ فإذا كانت الأعياد الإسلامية ترتبط بمعاني الإيمان وتفرض فيها القواعد التي تحددها الشريعة، فإن الأعياد التي لا ترتبط بالإسلام، كانت مناسبات للهو والهذر، فما يُفرض على المسلم لا ينطبق على غير المسلم. فتسامحت الجهات الفقهية والسلطات الحاكمة مع غير المسلمين في أدائهم لأعيادهم تبعاً لتقاليدهم، فاندفع المسلمون لإحياء هذه المناسبات على قدم وساق كأنها خاصتهم.

كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد المسيحية<sup>(١٨)</sup>، وقد شاركوا في الجانب اللاهني منها. فقد كان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامّة. وتبعاً لشهادات معاصرة فإن المسلمين والمسيحيين في بغداد، كانوا يقصدون دير سالمو، إلى شرقي بغداد، بباب الشامية على نهر المهدي، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره، حيث يدور الشراب<sup>(١٩)</sup>. ويقدم الشابتي وصفاً لعيد القديسة أشموني، وكان يُعمل بدير أشموني بقطر بلّ غربي دجلة حيث يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم. ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه، كل منهم على حسب قدرته، ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم، وبياهون بما يعدونه لقصصهم، ويعمرون ديره وأكنافه وحناناته، ويُضرب لذوي البسطة منهم الخيام والفساطيط. وتعزف عليهم القيان، فيظل كل إنسان منهم مشغولاً بأمره، ومكباً على لهوه<sup>(٢٠)</sup>. ويبدو أن عيد الغطاس كان من أكبر الأعياد في مصر، وحسب المسعودي في مروج الذهب فإن: لليلة الغطاس بمصر شأنًا عظيماً عند أهلها. . يحضر النيل في تلك الليلة مئات ألوف من المسلمين والنصارى<sup>(٢١)</sup>. ويذكر آدم متر أن عيد الأحد من الصوم المسيحي عيد من أعياد اللهو عند المسلمين، وينقل ما يذكره الشابتي في الديارات: وهي ليلة تختلط النساء فيها بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء، وهو معادن الشراب، ومنازل القصف ومواطن اللهو<sup>(٢٢)</sup>. كانت هذه الأعياد تجتذب العامة وأهل اللهو؛ ففي يوم الأحد الرابع من الصوم كان يجتمع النصارى ببغداد عند دير درمالس، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم. وعلى الغرار نفسه كان عيد الخروج عند النصارى في مصر من الأعياد التي يشارك فيها عامة المسلمين: وكانت عادة العامة والسوقة أن

(١٨) آدم متر: الحضارة الإسلامية. دار الكتاب العربي. بيروت (ط ٤) ١٩٦٧، الجزء الثاني ص ٢٨٢.

(١٩) نفسه، ص ٢٨٠.

(٢٠) نفسه، ص ٢٨٦.

(٢١) نفسه، ص ٢٨٩.

(٢٢) نفسه، ص ٢٩١.



يطوفوا قبل الخروج للسجن «أسواق البلد بالطبول والبوقات، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم.. فيخرجون ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات والساجات»<sup>(٢٣)</sup>.

وشاركت العامة من أهل المدن مشاركة واسعة بعيد النيروز، وكان من أكبر الأعياد الفارسية التي جعلها المسلمون من كافة الأجناس خاصتهم. وإذا شارك الخلفاء والسلاطين بالمناسبات الإسلامية وأظهروا كل بذخ، وإذا شاركوا في أعياد غير المسلمين كمشاركة المتوكل بعيد النيروز، أو مشاركة الظاهر بعيد الغطاس؛ فإن الأعياد كانت مناسبات ههنا للعامة والسوقه بشكل خاص. ومثال على ذلك ما كان يجري في مصر في عيد النيروز، إذ تنتخب العامة رجلاً يسمونه أمير النيروز، فيطلي وجهه بالدقيق أو الجير، ويركب في الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر، ويسير معه جمع كبير، فيتسلط على الناس.. فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء الممزوج بالأقدار، وكان الناس يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع، الفقراء في الشوارع والأغنياء في دورهم، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك<sup>(٢٤)</sup>.

يتحدث المقرئزي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م عن الأعياد القبطية باعتبارها تقاليد ماضية أدرك بعضها. إلا أن منع النصارى من إظهار أعيادهم قد تم على مراحل. ويذكر المقرئزي: من حوادث سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م. منع النصارى من إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء وإظهار الملاهي<sup>(٢٥)</sup>. ويذكر أيضاً أنه في سابع صفر سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م: قرىء سجل بالجامع العتيق وفي الطرقات كتب عن الحاكم بأمر الله يشتمل على منع النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب وأن لا يظهروا بزيتهم فيه ولا يقربوا كنائسهم وأن يمنعوا منها، ثم بطل ذلك حتى لم يكف يعرف اليوم بديار مصر البتة<sup>(٢٦)</sup>.

(٢٣) نفسه، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢٤) نفسه، ص ٢٩٤.

(٢٥) تقي الدين المقرئزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج ١) دار صادر-

بيروت (ب ت) ص ٢٦٤.

(٢٦) نفسه، ص ٢٦٥.

وبخصوص النوروز الذي هو أول السنة القبطية يذكر المقرئزي أن منع إحيائها قد تم في عهود متعاقبة حتى كانت سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م وأمر الدولة بديار مصر وتديرها إلى الأمير الكبير برقوق فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة، فانكف الناس عن اللعب في القاهرة وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعدما كانت أسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون عن حدّ الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعهور<sup>(٢٧)</sup>.

والواقع أن مواعيد الأعياد وتعددتها لم يصبه التبدل وإنما المغزى السياسي والديني هو الذي كان عرضة للتبدل. وقد أحلّ الفاطميون أعياداً ذات صبغة إسلامية محل تلك الموروثة عن التقاليد القبطية، وجدت العامة فيها مناسبات للهوها. ويعقد المقرئزي فصلاً في: ذكر الأيام التي كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم تتسم بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم<sup>(٢٨)</sup>. ويذكر من الأعياد الفاطمية: موسم رأس السنة وموسم أول العام ويوم عاشوراء ومولد النبي ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الحاضر وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسباط رمضان وليلة الختم وموسم عيد الفطر وموسم عيد النحر وعيد الغدير وكسوة الشتاء وكسوة الصيف وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العدس وأيام الركوبات.

والحق أن الفاطميين هم الذين صبغوا مصر بصبغتها الإسلامية. ولم تكن الأعياد هي الشكل الأكثر تعبيراً عن ذلك فحسب، بل كانت أيضاً شكلاً من أشكال إعلان السلطة، فالذي يملك السيطرة على التوقيت كان يملك زمام الرعية والعامة. وكان مضمون العيد شكلاً آخر من أشكال السيطرة، يذكر

(٢٧) نفسه، ص ٢٦٩.

(٢٨) نفسه، ص ٤٩٠.

المقريري أن يوم عاشوراء، كان الفاطميون يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم ويتبسطون في المطاعم.

تسمح الصفحات السابقة برصد جملة من الثنائيات تخرق مناسبات الأعياد، فثمة أعياد المسلمين والأعياد غير الإسلامية، وثمة من جهة أخرى الثنائية التي تحكم أعياد السلطة وأعياد العامة. توسلت الدول الحاكمة المناسبات الدينية الإسلامية لفرض سيطرتها على الزمان والمكان. إلا أن متابعة السياق تسمح أيضاً بمراقبة التناقض بين أعياد السلطة والأعياد الإسلامية والدينية.

### III

ليست الأعياد مظاهر وحيدة للهو، فالحياة اليومية في المدينة كانت تعكس أوجهاً من هو العامة التي تميل إلى الهذر بمناسبة أو بدونها. وإزاء العامة فقد كان للخاصة أشكال لهوها أيضاً.

كان محترفو اللهو وأربابه يظهرون في أسواق المدينة دون مناسبات حيث يجدون جمهوراً من العامة بانتظارهم. وكان الفهلوان والمهرج والمخيل أكثر أرباب اللهو جذاباً للعامة. يذكر ابن اياس: حضر شخص من حلب «فهلوان»، ونصب في بركة القرع التي بالجنية صواري وحبالاً، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجَمّ الغفير من الخلائق، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة في صفة الفهلوانية وهو واقف على الحبال. وكان لمصر مدة طويلة من أيام الأشرف برسباي لم يدخلها فهلوان مثل هذا في صنعة الفهلوانية، وكان هذا الفهلوان يدعى يوسف، وقيل انه من أبناء حلب، وقيل إنه نشأ باللاذقية، وكان شاباً جميل الصورة، وله عبيد علمهم صنعة الفهلوانية يمشون على الحبال أيضاً ويظهرون الفنون الغريبة مثله<sup>(٢٩)</sup>. ويخبر الغزي قصة مماثلة عن البهلوان الذي حضر إلى دمشق، والذي: ربط حبله في جملون السوق، وكان فوق

(٢٩) ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤. القاهرة. الجزء الخامس ص ٢٥٢.

السوق وتحتته رجال ونساء وهو في حال عظيم فوق السوق على من تحتته وسقط كل من كان عليه<sup>(٣٠)</sup>.

وتحتشد العامة في المواكب، ومن ذلك ما يذكره ابن اياس عند تعيين المحتسب أميراً للركب: «فرجت له في ذلك اليوم القاهرة، وزينت له الدكاكين، ووقدت له الشموع. وعلقت له الأحمال بالقناديل. . ومشت قدامه جماعة من الانكشارية. . ومشت قدامه جماعة من القواسة. . ومشت قدامه السقاؤون يرشون الماء بطول الطريق، ومشت قدامه الضوية بالمشاعل وعليها الفوط المزركش. . ولاقاه الشعراء، والشبابة السلطانية. . ولاقاه المغاني من النساء بالطارات، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان، وساقت قدامه البرجاس عربان بن حرام»<sup>(٣١)</sup>، وتجتمع العامة لكل حدث، فعند تغريق إحدى بنات الخطا: اجتمع الجم الغفير من الناس بسبب الفرجة عليها، وكان يوماً مشهوداً<sup>(٣٢)</sup>. ومن ذلك أيضاً رؤية هلال رمضان: «فركب القاضي من المدرسة المنصورية، فلاقته الفوانيس والمشاعل من هناك، وعلقت له القناديل على الدكاكين. . وكانت تلك الليلة من الليالي المشهودة في الفرجة والقصف»<sup>(٣٣)</sup>.

وكان للخاصة احتفالاتها وهوها في مناسباتها، من السلاطين إلى الأمراء إلى الأعيان والعلماء. ومن ذلك مثلاً الضيافة التي أقامها الظاهر بيبرس للإمام أحمد العباسي: أضافه ضيافة شاملة، ولعبوا قدامه بالشواني في البحر، ذهاباً وإياباً، والطبول والبوقات والنفوط عمالة، وكان يوماً مشهوداً جداً<sup>(٣٤)</sup>. ومن ذلك أيضاً أن الظاهر بيبرس لما ختن ولده الملك السعيد محمد، ورسوم للأمراء والجند والرعية، أن كل من كان له ولد يطلع به إلى القلعة، يختنه مع ابن السلطان، فطلع الناس بأولادهم إلى القلعة فبلغ عدتهم ألف وستمائة وخمسة وأربعين

(٣٠) نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة. دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٩، الجزء الأول. ص ٣١.

(٣١) ابن اياس: بدائع، الجزء الخامس ص ٢٤٦.

(٣٢) نفسه، ص ٣٠٤.

(٣٣) نفسه، ص ٣١٤.

(٣٤) ابن اياس، بدائع، الجزء الأول، القسم الأول ص ٣٢٠.

ولداً، خارجاً عن أولاد الأمراء وأعيان الناس، فرسم لكل واحد منهم بكسوة. واسترعاهم عمالاً بالقلعة، سبعة أيام، فركب ابن السلطان من الحوش إلى دور الحرم، ولعبت قدامه الغلمان بالغواشي الذهب، ومشت بين يديه الأمراء المقدمون قاطبة<sup>(٣٥)</sup>.

وعندما انتهى العمل من بناء القصر الكبير، أو لم السلطان في ذلك اليوم. . ثم أحضر آخر الليل المغاني وأرباب الآلات، ووقد به وقدة عظيمة، وبات بالقصر تلك الليلة، وأحرق حراقة نفظ بالرملة، وكانت ليلة ملوكية لم يُسمع بمثلها<sup>(٣٦)</sup>.

ويخبر ابن اياس أن السلطان سليم لما كان بالمقياس أحضر في بعض الليالي خيال الظل، فلما جلس للفرجة قيل، إن المخايل صنع صفة باب زويلة، وصفة السلطان طومان باي لما شتق عليه، ولما انقطع به الجبل مرتين، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل في تلك الليلة بمائتي دينار، وألبسه قفطان مخمل مذهباً، وقال له: إذا سافرنا إلى اسطنبول فامضي معنا حتى يتفرج ابني على ذلك<sup>(٣٧)</sup>.

أما أمير الأمراء خاير بيك فقد أحضر في اليوم المذكور: كباشاً يتناطحون قدامه، وكان قبل ذلك نادي في القاهرة، كل من كان عنده كبش نطاح يطلع به إلى القلعة يناطح بين يدي ملك الأمراء، فاستخف الناس عقل خاير بك على ذلك<sup>(٣٨)</sup>.

ويروي البديري الحلاق قصصاً عن احتفالات ومواسم اللهوف وسط القرن الثاني عشر / الثامن عشر ميلادي في دمشق. ومن ذلك القصة الغربية التي يوردها وفيها أن إحدى بنات الهوى عشقت غلاماً تركياً فمرض، فنذرت على نفسها إن عوفي من مرضه لتقرأ له مولداً عند الشيخ أرسلان، وبعد أيام

(٣٥) نفسه، ص ٣٢٢.

(٣٦) نفسه، ص ٤٤٥.

(٣٧) ابن اياس. بدائع الجزء الخامس ص ١٩٢.

(٣٨) نفسه، ص ٢٢٧.

عوفي من مرضه، فجمعت شلكات البلد ومشين في أسواق دمشق، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر، وهن يغنين ويصفقن بالكفوف، ويدفنن بالدفوف. والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن، وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور<sup>(٣٩)</sup>.

وعن احتفالات الخاصة نجد وصفين متعاقبين يقدمهما البديري في تاريخه؛ يتحدث عن ختان ابن والي دمشق: «شرح حضرة والي دمشق الشام، سليمان باشا ابن العظم في فرح لأجل ختان ولده العزيز أحمد بك. وكان في الجنية التي في محلة العمارة، وجمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى. واجتمع فيه من الأعيان والأكابر من الأفندية والأغوات ما لا يحصى. وأطلق الحرية لأجل الملاعب يلعبون ما شاؤوا، من رقص وخلاعة وغير ذلك. ولا زالوا على هذا الحال سبعة أيام بلياليها، وبعد ذلك أمر بالزينة، فترينت أسواق الشام كلها سبعة أيام، بإيقاد الشموع والقناديل، زينة ما سمع بمثلهما. وعمل موكب، ركب فيه الأغوات والشربجية، والأكابر والانكشارية، وفيه الملاعب الغريبة، من تمثيل شجعان العرب وغير ذلك»<sup>(٤٠)</sup>.

ويتحدث البديري بعد قليل عن فرح مماثل أجراه دفتدار الشام الذي كان له من النفوذ ما يعادل نفوذ الوالي، ونجد في وقائع الاحتفالات تقسيماً نموذجياً للمجتمع الأهلي في دمشق، يقول البديري: وبعد هذا الفرح، عمل فتحي أفندي الدفتري فرحاً عظيماً بهذا الشهر. ماعمل بدمشق نظيره. ولا بلغ أحد أنه عمل مثله. وكان سبعة أيام، كل يوم خصه لجماعة. فالיום الأول خصه بحضرة والي الشام. واليوم الثاني إلى الموالي والأمراء. واليوم الثالث إلى المشايخ والعلماء. واليوم الرابع التجار والمتسبين، واليوم الخامس إلى النصارى واليهود، واليوم السادس إلى الفلاحين، واليوم السابع إلى المغاني والمومسات وهن بنات الخطا والهوى. وقد تكرم عليهم كرمًا زائداً، ويعطيهم الذهب والفضة بلا

(٣٩) أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية. تحقيق أحمد عزت عبد الكريم. القاهرة

١٩٥٩ ص ١١٢.

(٤٠) نفسه، ص ٣٨.

حساب . وكان قبل الفرح عمل تهليلة، جمع بها جميع مشايخ الطرق<sup>(٤١)</sup>. وكانت المناسبات الخاصة بالسلطين، مناسبات يفرض فيها الفرح العام، فعند صعود السلطان سليمان إلى العرش في استامبول: «نودي في القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنة الملك سليمان، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة، حتى داخل الأسواق وغالب الحارات، ولا سيما خان الخليلي فإن تجاره زينوا زينة عظيمة، وصار الأمير علي الكيخنية والي القاهرة يطوف في كل يوم عدة مرات . . . وصار يخرج على تقوية الزينة ويضرب أصحاب الدكاكين بسبب الزينة»<sup>(٤٢)</sup>. وبعد ذلك بوقت قصير تم تثبيت ملك الأمراء في مصر من قبل السلطان سليمان، فزينت القاهرة: «وعلقوا له أحمالاً وثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة. ووقدوا له الشموع على الدكاكين، ولا سيما ما فعله تجار الدراقين من الشموع الموكيات الكبار، وأطلقوا له المجامر بالعود القساري، ومرشات الماورد المسك، ثم ان جماعة من التجار نثروا على رأسه الفضة في عدة أماكن من المدينة، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس، وانطلقت له النساء بالزغاريت. ويضيف ابن إياس: ثم نادى الوالي للناس بفك الزينة وقد أقامت القاهرة مزينة نحو عشرة أيام، وتكلف الناس بسبب هذه الزينة كلفة عظيمة من وقيد قناديل ومشتري زيت وغير ذلك، وحصل في هذه الزينة من التركان غاية الفساد من خطف النساء والصبيان المرء. والتجاهر بالمنكرات ليلاً ونهاراً حتى خرجوا في ذلك عن الحد»<sup>(٤٣)</sup>.

ومن قبيل الاحتفالات السلطانية التي تفرض على أهل الأسواق فرضاً، ويسودها الهرج واللهو، ما حدث في ذات القاهرة عند انتصار السلطان سليمان على الفرنج: «فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائر بالقلعة، ونادى في القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام متوالية، وفتك الناس في هذه الزينة فتكاً ذريعاً حتى خرجوا في ذلك عن الحد، وتجاهروا بالمعاصي ليلاً ونهاراً»<sup>(٤٤)</sup>. إلا أن

(٤١) نفسه، ص ٣٩.

(٤٢) ابن إياس، بدائع، الجزء الخامس ص ٣٦٦.

(٤٣) نفسه، ص ٣٨٥.

(٤٤) نفسه، ص ٤١١.

التعب كان قد ساور أهل السوق من تواتر المناسبات والاحتفالات فقد ترافق الانتصار على الأفرنج مع قدوم عيد الأضحى: «فحصل للناس مشقة زائدة بهذه الزينة، واشتغلوا بذلك عن الأضحية والعيد، ووقع في ذلك اليوم مطر غزير، فأعدم قماش الناس الذي زينوا به، وصار الوالي يبطح الناس على الأرض ويضرب الذي ما زين دكانه، فما حصل على أحد من الناس خير»<sup>(٤٥)</sup>.

لكن السلاطين والحكام بالمقابل، كانوا عند وقوع البلاء كالهزيمة أو الطاعون، أول ما يفعلونه هو الانتقام من أرباب اللهو، ومن ذلك أن السلطان بيبرس، أمر في النصف من شعبان: «بإبطال ضمان الحشيش واحراقها. وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمر، وأراقها، ومنع الحانات من الخواطي، واستتب العلق واللواطي، وعمّ هذا الأمر سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشامية»<sup>(٤٦)</sup>، وعندما تزايد أمر الطاعون وفك في الأطفال والماليك والعبيد والجوار والغرباء... نودي في القاهرة من قبل السلطان بأن لا يعمل عزاء بطارات ولا نائحة تنوح على ميت... ثم رسم السلطان لحاجب الحجاب ووالي القاهرة بأن يكبسوا بيوت النصارى ويكسروا ما عندهم من جرار الخمر، ويحرقوا أماكن الحشيش والبوزة ولا يبقوا في ذلك ممكناً. وقد وقع في دولة الأشرف شعبان بن حسين ما يقرب من هذه الواقعة<sup>(٤٧)</sup>.

#### IV

تُبرز الأعياد، وكافة أنواع اللهو، إشكالية الداخل والخارج، أو الظاهر والباطن، الخاصة بالمدينة الإسلامية، وكما فعل برقوق بأن طرد أهل النوروز إلى خارج المدينة فصاروا يعملون لهوهم ولعبهم خارج القاهرة، فإن المدينة في كل وقت كانت تطرد اللهو إلى خارجها. وفي عصرها الذهبي، فإن بغداد جعلت

(٤٥) نفسه، ص ٤١٧.

(٤٦) ابن اياس، بدائع، الجزء الأول، القسم الأول ص ٣٢٦.

(٤٧) ابن اياس، بدائع، الجزء الرابع ص ٧٦ - ٧٧.



كل ما يتصل بعبادات اللهو في البساتين المحيطة بها وخارج أسواقها. وقد انتشرت المواخير في ضواحي بغداد والخمارات في البساتين بعيداً عن رقابة المحتسبين، في شط الصراة ومطالع الفرات والزبيدية. وكان بعض الجماعات من اللاهين يخرجون إلى البساتين وضياف الأنهار، بعد أن يتزودوا من حاجاتهم ما يقدرون عليه من الخمر والمأكّل ويقصفون في العراء، وكان الأغنياء يضربون الخيم والفساط وتعزف عليهم القيان التي ترافقهم<sup>(٤٨)</sup>. وإذا كانت الحانات والخمارات قد امتدت إلى بعض أسواق بغداد، فإن ردة فعل الخنابلة كانت عنيفة عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٤م فصاروا يكبسون دور القواد والعامّة، وخرجوا يريقون الأنبذة ويضربون آلات الطرب<sup>(٤٩)</sup>.

وعلى هذا النحو نجد أن كل مدينة جعلت من البساتين القائمة خارجها أو ظاهرها، أماكن للهو. وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة وقاعات شراها الباردة، مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين حسب ملاحظة آدم متر، أما في مصر القاهرة فإن إبراهيم بن القاسم الكاتب يحصي معاهد اللهو فيها ويذكر منها موقع الأهرام، ومواخير الجيزة وبستان القس، وملعب دير مارحنا، وأحسنها دير القصير في جبل المقطم. وجميع هذه الأمكنة تقوم خارج المدينة وفي ضواحيها<sup>(٥٠)</sup>.

ومع الوقت فإن الاحتفال بقدم شهر الصيام، إنما كان يجري خارج المدينة على غرار كل المناسبات اللاهية، فالعامّة من أهل المدينة رجالاً ونساءً وأولاداً يحملون عدتهم ويخرجون إلى البساتين وضياف الأنهر ليودعوا الأيام العادية فيقصفون ويلهون استعداداً لاستقبال شهر الصيام.

واحتفل أهل الطرق الصوفية بمناسباتهم في مواكب داخل المدينة، إلا أن الخارج كان يجتذبهم أيضاً. ويذكر ابن إياس إحدى الأعياد الخاصة بالصوفية

(٤٨) فهمي سعد: العامة في بغداد. الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت ١٩٨٣، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤٩) نفسه، ص ٣٢٨.

(٥٠) آدم متر، الحضارة الإسلامية، الجزء الثاني، ص ٢٨٣.

المعروف بليلة سيدي اسمعيل الإنبائي: وكانت ليلة حافلة، وضرب في الجزيرة التي تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة، وخرج الناس في القصف والفرجة عن الحد<sup>(٥١)</sup>. ويذكر الجبرتي في تاريخه المناسبات التي يخرج فيها أهل الطرق الصوفية لزيارة قبور أوليائهم، وهذه المناسبات تتحول إلى احتفالات لاهية حسب الوصف الذي يقدم لإحداها، يذكر الجبرتي أن قبر الرزوقي صار مزاراً عظيماً يُقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء. ثم إنهم ابتدعوا له موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية، فينصبون خياماً كثيرة يجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والغواني والبغايا والقرادين والحواة. . . ويجتمع لذلك أيضاً الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياماً أيضاً، ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامّة من غير إنكار، بل ويعتقدون ذلك قرينة وعبادة، ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلاً عن كونهم يفعلونه<sup>(٥٢)</sup>.

واكتسب الفقهاء والعلماء عادة الخروج إلى ظاهر المدينة للتنزه، ويذكر الغزي في لطف السمر، خروج العلماء إلى بستان الربوة ومعهم المنشدين<sup>(٥٣)</sup>. ويذكر العلاف أن الشيوخ وأرباب الكسوة والعلمية، يقصدون مواقع خارج المدينة لنزهاتهم: فتراهم دوماً يلتمسون الأمكنة الهادئة من ضوضاء الناس واجتماعاتهم، وغالباً ما تبدأ نزهاتهم عقب صلاة الفجر، فيأخذون سَاور الشاي ومتعلقاته وبعض ما يصلح للصبوح من جبن وزيتون وبعض كتب السير أو كتب الفقه، فإن اختاروا محلاً قريباً من المدينة فعلى ضفاف قناة المزة مما يلي بردى يحطون رحالهم<sup>(٥٤)</sup>.

ويبدو أن مراسم «الشدّ» الخاصة بالطوائف الحرفية كانت تُقام أيضاً في

(٥١) ابن أبياس. بدائع، الجزء الرابع ص ١٥٢.

(٥٢) الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار، الجزء الثاني ص ٣٠٤.

(٥٣) نجم الدين الغزي: لطف السمر وقطف الثمر. منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨١، الجزء الثاني. ص ٦٦٥.

(٥٤) أحمد حلمي العلاف: دمشق في مطلع القرن العشرين. دار دمشق (ط ٢) ١٩٨٣، ص ٢٠٩.

أماكن خارج المدينة، ومراسم الشدّ هي الخاصة بترقية الصبيان المتعلمين في الحرفة عند رفعهم إلى رتبة الصناع. وشيخ الحرفة هو الذي يعين البستان الذي تقوم به الحفلة، فينطلق الجميع في الوقت المعين إلى المكان المرسوم، وهناك تقام الألعاب على اختلافها التي ترافق المراسم<sup>(٥٥)</sup>.

إذا كانت المدينة تطرد اللهو إلى خارجها، فإنها تتحفظ عليه في داخلها أو باطنها، وتعزله في أماكن مغلقة. وأبرز الأماكن المغلقة التي اعتبرت مواطن للهو هي الحمامات، ومن هنا تشدد الفقهاء في الأحكام الخاصة بها. ويحدد الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين مفكرات الحمامات: منها الصورة التي على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر. . فإن مشاهدة المنكر غير جائزة. ومنها كشف العورات والنظر إليها. ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك الخ<sup>(٥٦)</sup>. وقام أدب واسع متعلق بأداب الحمامات وأحوالها، يتناول كيفية دخوله والأوقات المناسبة لذلك، وما ينبغي عمله. ولدى الفقهاء فإن المصر الجامع لا بدّ له من أن يشتمل على حمام<sup>(٥٧)</sup>. إلا أن الاختلاف وقع في جملة أمور خاصة بالحمامات مثل دخول النساء. أما العامة من الناس وكذلك الخاصة فقد اعتبرت الحمامات أماكن لقضاء أوقات التسلية ومواطن اللهو.

كذلك، فإن بيوت القهوة اعتبرت بنظر الفقهاء وأهل التقوى أماكن يرتادها البطالون وأهل المجون؛ من هنا تشددوا في جعلها مغلقة. وقد وقف العلماء موقفاً متشدداً من شرب القهوة في القرن السادس عشر، عند دخولها إلى بلاد الشام ومصر. واستغرق النقاش حول حلها أو تحريمها مدى قرن من الزمن. ويشرح الغزالي في الكواكب السائرة الأمر عند تعرضه لسيرة أحمد عبد الحق السنباطي فيقول: كان رحمه الله يشدد في قهوة البن ويقول بتحريمها وتبعه جماعة من طلبة العلم بمصر، كما كان والد شيخنا الشيخ يونس العيثاوي يشدد فيها

(٥٥) نفسه، ص ١٥٦.

(٥٦) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين. دار المعرفة - بيروت لبنان، الجزء الثاني ص ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٥٧) أحمد بن محمد الكوكباني: حدائق النّام في الكلام على ما يتعلق بالحمام، تحقيق عبد الله محمد الحبشي. الدار اليمنية للنشر والتوزيع (ط ١)، ١٩٨٦. ص ١٨.

بدمشق وتبعه بعض جماعة من طلبة العلم بها حتى ضمنها بعض مؤلفاته . ثم انعقد الآن الإجماع على حلها في ذاتها، وأما في الاجتماع على إدارتها كالخمر وضرب الآلات عليها وتناولها من المرد الحسان مع النظر إليهم وغمز بعض أعقابهم فلا شبهة في تحريمه<sup>(٥٨)</sup> . ويذكر الغزي أن قاضي حلب صالح جلبي كان ممن منع شرب القهوة بحلب على الصفة المحرمة من الدور المرامى في شرب الخمر وغيره<sup>(٥٩)</sup> . ويبدو أن المتصوفة كانوا أسرع إلى حل شرب القهوة، فمحمد ابن سيدي محمد بن عراق، وهو من كبار المتصوفة أشهر شرب القهوة بدمشق فاقبدي به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها، ومن العجب أن والده كان ينكرها وخرّب بيتها في مكة<sup>(٦٠)</sup> .

وقد اعتبرت القهوة مادة لهو وفجور، وقد قال المفتي أبو السعود بعد أن سئل عن القهوة قبل أن يكمل اشتهاها، بعدما قرر له اجتماع الفقه على شربها، فأجاب: ما أكب أهل الفجور على تعاطيه، فينبغي أن يجتنبه من يخشى الله ويتقيه . وهذا ليس فيه تصريح بتحريمها بل يقتضي أن الأولى تركها حذراً من التشبه بالفجار . والكلام في القهوة الآن قد انتهى بالاتفاق على حلها في نفسها، وأما اجتماع الفقه على إدارتها في الملاهي والملاعب وعلى الغيبة والنميمة فإنه حرام<sup>(٦١)</sup> .

ويشرح القاسمي في قاموس الصناعات الشامية أحوال المقاهي فيقول: القهاوي كثيرة بدمشق، فكل محلة لا تخلو من عدة قهاوي . والقهاوي التي ضمن البلد، يكون رواجها كثيراً في زمن الشتاء، وفي فصل الصيف يزهد بها لشدة الحر . ويضيف: وعلى كل حال، فلا يدخل تلك القهاوي من كان ذا شهامة أو عقل أو دين، حيث انها مجمع الأسافل والأرذال<sup>(٦٢)</sup> .

(٥٨) الغزي: الكواكب السائرة، الجزء الثاني. ص ص ١١١ - ١١٢ .

(٥٩) نفسه، ص ١٥٣ .

(٦٠) نفسه، ص ١٩٨ .

(٦١) نفسه، الجزء الثالث، ص ٣٦ .

(٦٢) محمد سعيد القاسمي: قاموس الصناعات الشامية. دار طلاس - دمشق ١٩٨٨. ص ص

## V

إن كتب ورسائل الحسبة التي نوهنا بها من قبل، والتي تقدم لنا فكرة عن أحوال الأسواق في المدن وما تكتظ به من تنوع بشري يضم أرباب المهن والبطالين والمتسولين على السواء، تمتنع من اعتبار أهل اللهو من بين أصحاب المهن. وبالرغم من تواتر أخبار المهرجين والغنّين والمرقصين وسواهم، فإننا لن نجد في رسائل الحسبة، والتي تعني عادة بذكر أهل الحرف وصناعاتهم، ذكراً لأرباب اللهو من بين أصحاب الصناعات. ومن هنا، فإن تتبع أحوال محترفي اللهو يتطلب العودة إلى مصادر من نوع مختلف.

يتيح لنا كتاب اللهو والملاهي لابن خردذابه أن نتبع أصول وأحوال المغنين والموسيقين والراقصين؛ فهم بشكل عام أرقاء وجواري. ويبدو أن مهنة الغناء قد طغى عليها المخشون والخصيان. وحسب رواية ابن خردذابه فإن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك قد أمر بإخصاء كل المغنين المخشين. أما المغنيات فكن قينات وجاريات<sup>(٦٣)</sup>.

وقد حصل توسع في أنواع الحرف التي تنسب إلى اللهو. فلم تقتصر على الغناء والموسيقى، بل شارك فيها أهل السجاجة والمضحكين، وهم الذين يقدمون الأدوار التمثيلية في الاحتفالات. ومع انتشار مجالس الشراب التي تقدم الخمر والأنبذة صارت لمهنة الساقى أهميتها. وجرت العادة أن يكون السقاة من النصارى واليهود، واستهجن أن يكون الساقى مسلماً واعتبر ذلك خروجاً على تقاليد الحانات<sup>(٦٤)</sup>. وقد ضمت هذه الحانات حسب بعض الأوصاف: القيان من مغنيات وراقصات وندمان وغلّمان ومخشّين يصفون على مجالس الشرب حللاً من اللهو والتهتك<sup>(٦٥)</sup>.

إن الصورة التي ينكشف عنها عالم اللهو تضم: العبيد من غلّمان وجواري، كما تضم غير المسلمين من مسيحيين ويهود. وتضم بشكل خاص الغرباء

(٦٣) ابن خردذابه: من كتاب اللهو والملاهي ص ٣٢.

(٦٤) فهمي سعد: العامة في بغداد ص ٢٧٠.

(٦٥) نفسه، ص ٢٧٣.

والضعفاء الذين ينتقلون من مدينة إلى أخرى ليعرضوا فنونهم وسماجاتهم. كما تشتمل صورة أرباب اللهو على المشوهين وأصحاب العاهات، كالأقزام لمهن التهريج والفهلوة، والعميان للغناء والضرب على الآلات. هذه هي الصورة التي يمكن استخلاصها من الجبرتي حين يتحدث عن أرباب الملاهي والملاعب والغواني والبغايا والقرادين والحواة. وتشبهها تلك التي يقدمها البديري حين يذكر: سائر الملاعب وأرباب الغناء واليهود والنصارى. وفي حوادث عام ١٢٦٠هـ/ يشير البديري على سبيل المثال إلى أنه ورد إلى الشام ثلاثة يهود من مدينة حلب لهم مهارة في ضرب الآلات بأحسن النغمات فصاروا يشتغلون في قهاوي الشام ويسمعهم الخاص والعام.

يقدم قاموس الصناعات الشامية مادة فريدة بخصوص حرف اللهو والبطالة، فيشير إلى مهن: الحكواتي، الخمار، الحامي، الزمار، الثعباني، الحمياتي، الطبال، العقاربي، العواد، القراد، القوال، المزعبر، المشبب، المصارع، المصور، المهرج، المغني، الممثل.. ولا يتوان مصنفو هذا القاموس عن وصف أغلب أصحاب هذه المهن بالدناءة والخسة: فالخمار خبيث وحرفته من أخبث الحرف، والزمار الذي يطوف على القهاوي والأسواق فينتمي إلى فرقة تسمى الجعيدية، والحمياتي الذي يطير الحمام ويتاجر به، فليس له دين ولا دنيا. وعادة ما يكون الطبال من القرى أو من الغجر أو من القبط. والقرادون الذين يرقصون القردة أو الدببة فهم أيضاً من الجعيدية أو من النور «الغجر». وحرفة القوال نوع من الشحاذة، وغالب القوالين من مصر، وحرفتهم دنيئة. والمزعبر أو المشعوذ، الذي يأتي الأفعال العجيبة فعادة ما يكون من الإفرنج. ومثل الروايات من الأرمن والأروام. والمهرج حرفة يتعيش منها الأديناء. أما المغني فلا بركة في حرفته.

لقد أخرج الفقهاء أرباب اللهو من قوائم أهل الحرف والصناعات، وأخرجوا اللهو خارج المدينة، أو عزلوه في أماكن مغلقة وتشددوا في ذلك. وعلى نحو عام، فإن المدينة تركت مهن اللهو للهامشيين والغرباء والضعفاء وذوي العاهات والنقائص ووسمتهم بالدناءة.